حرفتى الصباغة والدباغة فى ليبيا دراسة فى الأصول والتطور

المقدمة:

تعد دراسة تاريخ صناعتى الصباغة والدباغة فى ليبيا خلال مختلف العصور التاريخية من المواضيع التى لم تحظ باهتمام الآثاريين من قبل، ولعل السبب يعود لشح المصادر المتعلقة بهذا الجانب الحضارى من حياة الليبيين من جهة، وقلة المختصين فى هذا المجال من جهة أخرى. الأمر الذى شجعنى على الكتابة فى هذا الموضوع.

ولا شك أن تتبع تاريخ هذه الحرف الصناعية فى ليبيا بأدلة وشواهد آثرية تعد إضافة جديدة يمكن بواسطتها التوصل إلى معرفة أصولها وتطورها فى الحضارات المتعاقبة، والوقوف على طبيعة مصادرها. وقد تناول البحث ركائز مهمة شملت العديد من النقاط أهمها:

١ – تعريف علم الصباغة وتلوين المنسوجات والجلود.
٢ – مصادر الأصباغ فى ليبيا وطرائق استخلاصها.
٣ – أساليب تثبيت الأصباغ على المنسوجات والجلود.
٤ – فترات ازدهار هذه الحرف فى العصر الإسلامى ثم اضمحلالها.
٥ – معالجة جلود بعض الحيوانات لتكون صالحة للصناعة.
٦ – تقنية وأدوات الدباغة.
٧ – تلوين الجلود.

أولاً: الصباغة

قبل الخوض في تاريخ الصباغة في ليبيا ومصادرها لابد من التعريج على مدلول كلمة الصّبغ أو الصّباغ إذ يشير إلى المستحضر الذي تلون به الثياب ونحوها ومصدر الكلمة صبّغُ، كما تشير الكلمة إلى مايصطبغ في الأطعمة أي مايؤدم به. وقد أشار إلى هذا المعنى القرآن الكريم في قوله سبحانه: [وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِلآكِلِين][(١)] فضلاً عن معان أخرى كثيرة.

ويعد علم الصبغ من العلوم التى لا يُعرف متى اهتدى الإنسان إليها، غير أنه بلغ حدًا من الإتقان والجودة منذ عصور موغلة في القدم، ومن الملاحظ أن مصادر الأصباغ وعبر قرون طويلة لم تخرج عن ثلاثة مصادر رئيسة، هى المصدر النباتي، والمصدر الحيواني، والمصدر المعدني.

١ – الأصباغ ذات المصادر النباتية:

تعد جدور النباتات وسيقانها وأوراقها فضلاً عن قشور بعضها وأزهار أخرى أو ثمارها من أهم مصادر هذا الضرب من الأصباغ[(٢)] إذ يحصل على اللون الأحمر من جذور نبات الفوة، الذي كان منتشرًا والأناضول وأواسط أسيا، ومنطقة حوض البحر المتوسط حيث عرفت ليبيا زراعته بكميات سمحت بتصديره إلى بعض الدول الأوروبية

---

(١) سورة المؤمنون، الآية (٢٠).

(٢) سعاد ماهر محمد، الفنون الإسلامية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٦م، ص ١٦٩؛ فريال داود المختار، المنسوجات العراقية الإسلامية من الفتح العربي إلى سقوط الخلافة العباسية، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٧٧م، ص٢٣.

لا سيما فرنسا ومالطا[١] وتتصف الفوة بكونها عروق طوال ذات لون أحمر على هيئة قصب السكر، تزرع بعلاً أو سقيًا، حيث تحصد بعد عامين ولهذا تعد من النبتات المعمرة[٢] ومن المعروف أن هذه الصبغة تعطي كل ألوان الحمرة المتدرجة من الوردي الفاتح إلى اللأحمر القاني[٣]، ويحصل على هذا اللون من نباتات أخرى منها نبات الورس[٤] الذي يأخذ قبل أن يتفتق شجره[٥].

كما يحصل على هذا اللون من نبات العصفر الذي تعرف خلاصته بالجريان[٦] ويستخرج أيضًا من لحاء شجر البلوط الدائم الخضرة والذي ينمو في شمال أفريقيا وجنوب شرق أوروبا، وشمال آسيا وغيرها من المناطق[٧].

كما يستخلص هذا اللون من جذور نبات الجذارى الذي يكثر في العديد من البلدان الليبية لاسيما مزدة[٨] وبني وليد[٩]، إذ كان الإنتاج يفيض عن الإستهلاك المحلى ويصدر الباقي إلى مصر وبكميات كبيرة سنويًا. وتحتوي جذور الجداري على عصارة خشبية حمراء تستعمل في دباغة الجلود فضلاً عن الصباغة، ويستخلص اللون الأحمر المائل للسواد من نباتات عدة منها البكم، ونبات الحناء التي كانت تزرع في ليبيا ابتدًا من الشهر السادس (يونيو) وحتى الشهر الحادى عشر (نوفمبر)، حيث تصدر كميات كبيرة منها إلى تونس والمغرب الأقصى خلال العصر العثماني[١٠]، أما في الوقت الحاضر فقد انحصرت زراعتها وأصبحت البلاد تستوردها من السودان وغيرها.

---

(١) حسن الفقيه حسن، اليوميات الليبية، (٩٥٨- ١٢٤٨هـ/ ١٥٥١- ١٨٣٢م) تحقيق: محمد الأسطى وعمار جحيدر، منشورات مركز دراسات جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي، ج ١، طرابلس، ١٩٨٤م، ص ص ٢٢١، ٣٩٣، ٥١٣، ٦٣٢.

(٢) حسن الفقيه حسن، اليوميات الليبية،ج ١، ص ص ٢١٩، ٢٢١، ٥١٣؛ ربيع حامد خليفة، الفنون الزخرفية اليمنية في العصر الإسلامي، الدار اللبنانية، بيروت، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م، ص ١٦٩.

(٣) عبد العزيز الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع عشر الهجري، مطبعة العراق، بغداد، ١٩٨٤م، ص ٦٠.

(٤) الورس: الاسم العربي لنبات الزعفران وهو نبات يشبه السمسم، ويذكر أن اليمن التي كانت تحمل الزعفران إلى الشمال تصفر ألوانها بتأثير لون أحمالها. محمد بن جرير بن يزيد الطبري، تاريخ الأمم والملوك، مطبعة الإستقامة، القاهرة، (١٣٥٨هـ/ ١٩٣٩م)، ص٢٩٠؛ ربيع حامد خليفة، الفنون الزخرفية اليمنية في العصر الإسلامي، ص ١٦٩.

(٥) عبد العزيز الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي فى القرن الرابع الهجري، ص ٦٠.

(٦) ابن سيدة، أبو الحسن علي بن إسماعيل، المخصص، ج ٢، ج ٤، دار الأفاق الجديدة، بيروت، (د. ت)، ج ٣، ٢١٠.

(٧) ألفرد، لوكاس، المواد والصناعات عند قدماء المصريين، مكتبة مدبولي، القاهرة، د. ت. ص ٢٤٣.

(٨) بلدة قديمة بالجبل الغربي (جبل نفوسة)، تقع جنوب غرب غريان بحوالى ٨٥ كم، الطاهر الزاوي، معجم البلدان الليبية، مكتبة النور، طرابلس، ١٣٨٨هـ /١٩٦٨م، ص ٣١١.

(٩) تعرف أيضاً بورفلة أو ورفله، وهي مدينة كبيرة كانت وحتى القرن العشرين تعد من أرياف و بوادي طرابلس إذ تقع جنوبها بنحو ١٨٠ ١٨٠ كم. الطاهر الزاوى، معجم البلاد الليبية، ص ص ٣٣٦، ٣٣٧، ٣٥٧.

(١٠) محمد ناجي ومحمد نوري، طرابلس الغرب، ترجمة أكمل الدين محمد أحسان، مكتبة الفكر، طرابلس، ١٩٧٣م، ص ٣٥.

أما اللون الأصفر وأطيافة فيستخرج من نبات الزعفران (الورس) المنتشر في عدة مناطق من ليبيا ولاسيما غريان الذي أمتاز زعفرانها بجودته العالية إذ كان يفيض عن حاجة السكان ويصدر لكل من تونس ومصر وأوروبا[١]. كما يحصل على درجات هذا اللون من عيدان نبات الكركم، ومن خلط الفوة بقشور الرمان[٢].

واستخدم الصباغون في ليبيا النيلة الهندية والنيلة البرية التي كانوا يستوردونها من مصر واليمن في تلوين المنسوجات،في حين صدرت ليبيا إلى مصر وبلاد الشام نبات البطم الذي يتخذ من لحاء شجره صبغ لتلوين بعض الأقمشة وهو شجر جبلي له ثمرعلى حيئة حبوب خضراء أشار الحشائشي أنه ينمو بكثرة على سفوح الجبل الأخضر. ويعد من الأشجار الهامة التى لاتزال تنمو بهذا لجزء من البلاد[٣]. أما سكان مدينة غدامس الواقعة اقصي الجنوب الغربي فقد استعملوا أوراق شجر تعرف بالحشيش في صبغ الأقمشة وهى على نوعين الأول أجرجر والثاني غلاشم بحسب اللغة الأمازغية[٤].

وللحصول على الأصباغ النباتية بوجه عام تنقع خلاصة المادة النباتية في خلاصة الشعير، ثم توضع في آنية نحاسية استعدادًا لتسخينها تدريجيًا على نار هادئة، لفترة معينة، مما يجعل ألوان النسيج براقة كما تحافظ على متانة النسيج ونعومة ملمسه، ثم يغمر الغزل او النسيج في حوض الصباغة مع استمرار تحريكه كيي تتوزع الصبغة بشكل متجانس على الغزل، ثم تشطف بالماء البارد وتجفف. وتثبيت الصبغة يتم بإضافة الشب أو لحاء شجر البلوط أو العصفر مضافًا إلى قشور الرمان وأشجار الفستق والجوز[٥].

٢ – الأصباغ ذات المصادر الحيوانية:

تستخرج هذه الصباغ من دم الحيوانات البرية،ومن محار بعض الحيوانات البحرية[٦]، وكذلك من مسحوق بعض الحشرات، ويمكن الحصول على الدرجات المختلفة من اللون الأزرق وأطيافه من حشرة الجراد بعد أن تجفف

---

(١) حسن بن محمد الوزان، صف أفريقية، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، دار المغرب الإسلامي، ٢، بيروت، ٩٨٣م، ص١٠٦. محمد ناجي ومحمد نوري، طرابلس الغرب، ص ٣٥.

(٢) عبد العزيز الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع عشر الهجري، ص ٩٦.

(٣) محمد بن عثمان الحشائشي التونسي، جلاء الكرب عن طرابلس الغرب،ص ص ٩٣، ٩٨.

(٤) بشير قاسم يوشع، غدامس وثائق تجارية تاريخية اجتماعية، مركز جهاد الليبين للدراسات التاريخية، دار لبنان للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٢م، ص ٣٧.

(٥) فريال داود المختار، المنسوجات العراقية الإسلامية من الفتح العربي إلى سقوط الخلافة العباسية، دار الحرية للطباعة، بغداد ، ١٩٧٧م.، ص ٢٣.

(٦) يذكر ان الصباغين المصريين استخلصوا اللون الأزرق من محار حيوان يعيش في مياه البحر المتوسط والبحر الأحمر منذ ألف سنة ألف سنة قبل الميلاد كما اشتهر الكنعانيون استخلاص صبغ أرجواني من حيوان صغير يعيش داخل صدفة، له عدة غدد تحت رأسه تحتوي على المادة الأولية للصباغة، ويقال إذا استخرجت هذه المادة وعرضت للشمس فإنها تتلون تباعًا باللون الأخضر فالأزرق فالأحمر، ثم تستقر على اللون الأحمر الأرجواني، ويجب مراعاة أخذ الصبغ قبل موت الحيوان لأن اللون يفسد بمجرد موته. للمزيد من المعلومات أنظر فاروق ناصر الراوي، الكيمياء، حضارة العراق، ج ٢، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٨٥م، ص ٣٥٣.

وتسحق وتحفظ في دنان من الطين[١]. أما اللون الأحمر وأطيافه فيمكن الحصول عليها من انثى حشرة القرمز التي كانت تقتات على نوع معين من شجر السنديان وشجر البلوط، ويعد القرمز من اقدم مواد الصباغة لكنه لا يصبغ دون مثبت للون[٢]. كما يحصل على هذا الضرب من الألوان من حشرة دودة القز، حيث تجمع بكميات كبيرة، ثم تجفف وتسحق لتصبح جاهزة للاستعمال[٣].

ويعد دم الحيوانات من أسهل السبل للحصول على اللون الضارب إلى الحمرة، وأفضلها دم الثيران، كما يستخدم دم الأغنام للحصول على اللون القرمزي، أما اللون الأصفر فيستخلص من مرارة الحيوانات بعد تجفيفها وطحنها[٤]. وطحنها[٤].

ومن المفيد ذكره أن الأصباغ الحيوانية بشكل عام لاتكون صالحة للاستخدام إلا إذا أجريت عليها عملية التسخين وأضيفت إليها بعض المواد المثبتة، وجرت العادة أن توضع المادة المراد الصبغ بها في آنية على نار هادئة، ثم يضاف مثبت الصبغ المكون من مادة الشب، أو قشور الرمان أو عصير الليمون الحامض، أو عصير التمر هندي بنسب معينة، مما يساعدعلى تثبيت الأصباغ ويحافظ على بريقها[٥].

٣ – الأصباغ ذات المصادر الحيوانية

تستخلص الأصباغ المعدنية من بعض المعادن كالحديد والنحاس، فضلاً عن استخلاصها من الأملاح وبعض الأحماض. وقد شاع استخدام هذا الضرب من الأصباغ بشكل خاص في منتصف القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي نظرًا لرخص أثمانها، وسرعة تنفيذهاعلى المنسوجات[٦].

وقد تنوعت ألوان هذا الضرب من الأصباغ،فكان منها اللون الأسود الذي استخلص من أكاسيد الحديد الممزوج مع السماق أو مزج أملاح الشب مع العفص، كما تمكن أهل هذه الحرفة في العراق من االحصول على اللون الحمر من تفاعل أكسيد الحديد مع محلول قاعدي، وحصلوا على اللون الأزرق من أملاح الصودا الكاوية أو الجير النهري، كما استخلص اللون من مسحوق حجر اللازرد أو من مزج مقدار معين من الفضة مع زيت الآس وحشرة

---

(١) فريال داود المختار، المنسوجات العراقية الإسلامية من الفتح العربي إلى سقوط الخلافة العباسية، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٧٧م، ص ٢٣.

(٢) ألفرد، لوكاس، المواد والصناعات عند قدماء المصريين، مكتبة مدبولي، القاهرة، د. ت، ص ٢٤٣.

(٣) محمد عبد العزيز مرزوق، الفنون الزخرفية الإسلامية في العصر العثماني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٤م، ص ١٢٢.

(٤) سعاد ماهر محمد، الفنون الإسلامية، ص ١٧٦، ١٧٧.

(٥) فريال داود المختار، المنسوجات العراقية الإسلامية من الفتح العربي إلى سقوط الخلافة العباسية، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٧٧م، ص ٤٣.

(٦) سعاد ماهر محمد، الفنون الإسلامية، ص ١٧٧.

القرمز[١]. واستطاع قدماء المصريون من الحصول على بعض الأصباغ من أملاح الحديد أو من كبريتات الحديد التي توجد كشوائب في مادة الشب[٢].

أما بخصوص مثبتات الأصباغ المعدنية فقد ذكر أن أهل العراق استخدموا الطمي كمثبت لهذا الضرب من الأصباغ لاحتوائه على الألمنيوم والحديد، ثم استطاعوا الحصول على أنواع نقية من هذين العنصرين كما أضافوا الترتر (ملح الليمون) لمنع ترسب الألمنيوم والحديد الموجودين في مادة الشب بواسطة أملاح الأمونيا الموجودة في النسيج[٣].

وفيما يخص حرفة الصباغة وفن تركيب الألوان في ليبيا تفيد المصادر التاريخية والآثارية أنها قديمة قدم الإنسان والتاريخ، وليس أدل على ذلك من تلك الأواني المحتوية على بقايا الأصباغ المعدنية من ألوان مختلفة التي استعملها سكان جبال أكاكوس بجنوب غرب ليبيا في تلوين صور حياتهم الاجتماعية التى رسموها على جدران بيوتهم داخل تلك الجبال[٤]، كما أوردالاالمؤرخ الإغريقي هيرودوتس[٥] أن الفلاحين الليبيين المقيمين بالجانب الغربي الغربي من ليبيا يدهنون أجسامهم بصبغة معدنية حمراء في إشارة إلى أوكسيد الرصاص الأحمر ،هذا فضلاً عن استعمالهم الفوة في الصباغة.

ومامن شك في انتقال هذه الحرفة بين العديد من الصناع عبر التاريخ فقد أشار الضابط الإنجليزي جون ليون[٦] ليون[٦] إلى أن النساء الليبيات في البادية يستخدمن كل اللوان تقريباً في الصباغة، ما عدا اللون الأخضر الذي وجدن صعوبة في تحضيره أو الحصول عليه. إلا أن القائمين على الصباغة في طرابلس نجحوا في تحضيره.

كما ذكر الرحالة فرنشيسكو كورو[٧] أن محترفي الصباغة من الطرابلسيين نالوا شهرة طيبة خلال القرنيين السابع والثامن عشر الميلاديين عبر عنها قناصل الدول الأوروبية العاملون في طرابلس، وذلك من خلال تقاريرهم التي كانوا يرسلونها إلى حكوماتهم، وأضاف أن أرباب هذه الحرفة غالبًا ما كانوا يتخذون من صحون وحجرات الفنادق القديمة مصابغ لهم، حيث رأى بصحن وحجرات فندق (سيالة) بطرابلس ربطات الغزل المصبوغ باللون الأرجواني منتشرة تجففها الرياح. وكان من بين الفنادق التي اتخذت كمصابغ ومعامل لإنتاج النسيج فضلاً عن دكاكين لبيع المنتجات المتعلقة بهذه الحرفة (فندق بنت السيد أو فندق مصطفى بك).

---

(١) فاروق ناصر االراوي، الكيمياء، حضارة العراق، ص ٣٥٣؛ وليد الجادر، الأزياء والأثاث، حضارة العراق، ج ٤، دارالحرية للطباعة، بغداد، ١٩٨٥م، ص ص٣٤٠، ٣٤٣.

(٢) ألفرد، لوكاس، المواد والصناعات عند قدماء المصريين، مكتبة مدبولي، القاهرة، د. ت.

(٣) فرج حبة، الكيمياء وتكنولجيتها في العراق القديم، مجلة سومر، م ٢٥، ج ١، ج ٢، ١٩٦٩م ، ص ١٠٣.

(٤) هنري لوت، الرسوم الصخرية في الصحراء الكبرى، الصحراء الكبرى، منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، طرابلس، (١٩٧٩م)، ص ص ٨٨، ١٠٥.

(٥) هيرودتس، الكتاب الرابع، ترجمة: محمد المبروك الدويب، منشورات جامعة قاريونس، بنغازي، (١٩٨١م)، ص ٨٢.

(٦) جون فرانسيس ليون، من طرابلس إلى فزان، ترجمة: مصطفى جودة، الدار العربية للكتاب، ليبيا- تونس، (١٩٧٦م)، ص ٨٣.

(٧) فرنشيسكو كورو، ليبيا أثناء العهد العثماني الثاني، تعريب خليفة التليسي، دار الفرجاني، طرابلس، ١٩٧١م، ص ٨٨.

أما بخصوص شرق ليبيا تجدر الإشارة إلى وجود المصادر التى يستخلص منها هذا الضرب من الأصباغ لاسيما في مناطق الجبل الأخضر، حيث كانت تورد إلى ميناء بنغازي بكميات هائلة تكدس بهيئة جبال، جبال، وتصدر إلى أوروبا ومختلف أقاليم الإمبراطورية العثمانية[١].

ويبدو أن هذه الصناعة قد اعتراها تدهور لاحظه بعض من الرحالة ممن زار البلاد خلال العصر العثماني، إذ يشير كاكيا[٢] أثناء حديثه عن منسوجات الحرير المنتجة في طرابلس أن الأصباغ كانت غير متقنة والألوان ضعيفة التركيز، وعلى الرغم من ذلك ظلت أحياء البلدة القديمة وحتى الربع الأخير من القرن العشرين مشهورة بهذه الحرفة العريقة، ومنها حي الفنيديقة وزنقة النساء[٣].

والجدير بالذكر أن الصباغة من الصناعات التقليدية التي لم تشهد تغيرات أساسية تذكر في أساليب تقنيتها، فقوام مصانعها أحواض نحاسية لتسخين الصبغ، تقوم على مناصب أو ما يشبه الأفران توقد فيها النيران، ثم هناك أدوات من القضبان المعدنية غير قابلة للصدى لعصر ونشر الأنسجة او الغزل بعد صبغها، وعصا خشبية للتحريك اثناء الصبغ.

ثانيًا: الدباغة

هي معالجة جلود بعض الحيوانات كالبقر والماعز والغزلان والأبل، لتكون صالحة لصناعة بعض الملابس واللوازم كالأحذية والأحزمة والحقائب، وسروج الخيل ولجامها، وارق الذي يعد من أهم لوازم الكتابة عند العرب، كذلك أوعية حفظ المياه (القربة) والسمن وماشبه (العكة)[٤]. وقد كانت العرب تسمي الجلد قبل أن يدبغ الإهداب، ويطلقون على الجلد الأبيض القظيم، وجلد الماعز يسمونه القد، ويعرف جلد جدع الأبل وما فوق بالوطيب[٥].

ودباغة الجلود من الحرف التى لم يطرأ عليها الكثير من التغيير منذ القدم، حيث كانت وحتى القرن العشرين تجرى بالطرق القديمة تقليدية تبدأ بسلخ جلود الحيوانات، ثم حفظها وتغطيتها، وبعد نشرها في الهواء ثم دباغتها، وأخيرًا صباغتها وتلوينها استعداداً لتصنيعها وتشكيلها حسب الطلب والرغبة[٦].

---

(١) محمد بن عثمان الحشائشي التونسي، جلاء الكرب عن طرابلس الغرب، ص ص٣، ٩٨.

(٢) جوزيف انتوني كاكيا، ليبا خلال الإحتلال العثماني الثاني١٨٣٥-١٩١١م، دار الفرجاني، طرابلس، ١٩٧٥م ، ص ١١٥.

(٣) سعيد على حامد، من صناعاتنا التقليدية النسيج، مجلة تراث الشعب، م ٣، العدد ٣، ٤، السنةالثالثة، (١٤٠٢ و.ر/ ١٩٩٣م)، ص ٧٢.

(٤) الفراهيدي، العين، أبو عبد الرحمن بن خليل أحمد، كتاب العين، ج ٧، تحقيق مهدي المخزومي، وإبراهيم السامرائي، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٨٦م، ج ٥، ص ١٧. إفالد بانزة، طرابلس مطلع القرن العشرين، ترجمة: عماد الدين غانم، منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، مطابع المؤسسة العلمية للوسائل التعليمية، جلب، ١٩٩٨م، ص ١٤٤. يحيى وهيب الجبوري، الخط والكتابة في الحضارة العربية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٤م، ص ص ١٣، ١٤، ٤٠، ٤٣.

(٥) ابن سيدة، المخصص، ج ١، ص ص ١٠٠، ١٠١.

(٦) فاروق ناصرالراوي، الكيمياء، حضارة العراق، ص ٣٥٠.

وقد أشارت بعض المصادر[١] إلى هذه الطرائق، حيث ذكر أن عملية التعطين تتم بنقع الجلود في فرث الحيوانات أو نقعها في مياع مشبعة بالأملاح ليسهل بعد ذلك انتزاع أصوافها أو شعرها بعد أن أصبحت ضعيفة.

لمرط الجلود لابد من إخراجها من محلول الملح، ثم تجفيفها وتنظيمها بكشط الدهون، وبقايا اللحم، ثم حفظها في غرف خاصة ذات هواء رطب لفترة يوم أو يومين، وهي مطوية برفق، مع مراعاة عدم طي الجلود وهي مبلولة حتى لا تتنن رائحتها وتفسد، ثم تفرد وتنزع عنها أصوافها، ثم تأتي عملية بشرها أو ضربها لتنظيفها جيدًا لإكسابها الليونة، وهو ما يسمى (بالملخ)[٢] ويذكر أن هذا المصطلح كثر تداوله في الوثائق الليبية التي تعود للعصر العثماني التى تتحدث عن الجلود المعدة للصناعة[٣].

وبخصوص عملية الدباغة يذكر أنها تتم بثلاثة طرق تقليدية وهي:

الدباغة بالأملاح والدباغة بالنبات والدباغة بالزيوت، والجدير بالذكر أن الطريقتين الأولى والثانية من الأساليب الموروثة عبر الأجيال التي لاتزال مستعملة في بعض مناطق ليبيا حتى وقتنا الحاضر[٤].

وتتم الأولى باستخدام الأملاح المعدنية غير النقية مثل مادة الشب المحتوي على شوائب الحديد التي تساعد على انجاز عملية الدباغة[٥].

أما الدباغة بالأعشاب والنباتات فتتم بنقع الجلود في منقوع قرون شجر السنط (القرظ)، كما يستخدم لهذا الغرض قشور شجر الطلح وسيقانه التي تنمو في المناطق الصحراوية الحارة[٦] كذلك تصبغ الجلود بعصارة نبات اللك[٧] أو تمار التمر بعد تخميرها أو بعد أن يصبح خلاً.

أما الدباغة بواسطة الزيوت فتتم عادة بدهن الجلود ثم دقها بخشبة إلى أن تخرج جزيئات الماء منها ليحل الدهن الذي يتخلل مسامات الجلد ليكسبه طراوة وانسيابية تساعد على التحكم في تشكيله على النحو المطلوب[٨].

---

(١) الفراهيدي، العين، ج ٢، ص ١٤. ابن سيدة، المخصص، ج ١، ص ١٠٧.

(٢) فاروق ناصر االراوي، الكيمياء، حضارة العراق، ص ٣٥٠.

(٣) حسن الفقيه حسن، اليوميات الليبية، ج ١، ص ٣٣٠. مريم الزناتي إبراهيم، ملابس المرأة الليبية خلال العصر العثمانى، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة قاريونس، بنغازي، ٢٠٠٥م، ص ٣٧.

(٤) تبين القرائن الآثارية استخدام الليبين لهذه المادة منذ عصر الأسرات على أقل تقدير، حيث ظهر صور لليبيين بملابس جلدية منها قمصان وعباءات فضفاضة ومزركشة بالنقوش فضلاً عن ذكر الأحذية في انصوص المدونة على الآثار المصرية. كما استخدموا الجلود في صنع خيامهم. رجب عبد الحميد الأثرم، محاضرات في تاريخ ليبيا القديم، دار الأماني للنشر، دمشق، ١٩٨٨م، ص ص ٨٠، ٨١. أما هيردوت فقد ذكر أن نساء ليبيا يلبسن فوق ثيابهن شيلان جلود ماعز ملساء ملونة بفوة الصباغين.هيرودتوس، الكتاب الرابع، ص ١٢٨.

(٥) فاروق ناصرالراوي، الكيمياء، حضارة العراق، ص ٣٥١.

(٦) جرهارد رولفس، رحلة إلى الكفرة، ص ٥٥٣ .

(٧) صبغ أحمر اللون تفرزه بعض الحشرات على بعض الأشجار في جزر الهند الشرقية يذاب في الكحول فيكون منه دهان للخشب. مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط ، مطبعة مصر، القاهرة، ١٣٨١هـ/ ١٩٦١م، ج ٢، ص ٨٤٣.

(٨) فاروق ناصر االراوي، الكيمياء، حضارة العراق، ص ٣٥١.

ولكي تصبح الجلود جاهزة للصناعة لابد من صباغتها بألوان تكسبها مظهرًا مقبولاً، ومن أكثر الألوان شيوعًا في صباغة الجلود في ليبيا هما اللونيين الأحمر والأصفر، ويستخرج اللون الأحمر من عصارة نباة الفوة، ويقال جلد مفوي أي مصبوغ بالفوة[١] أما اللون الأصفر فيحصل عليه من عصارة قشور الرمان، كما تستخدم النيلة لصباغة الجلود باللون الأزرق[٢].

وللدباغة أدوات لابد للعامل من إمتلاكها أولها المقراض، وهو حديدة عريضة الرأس تصنع لتقطيع الجلد، ثم هناك الأشفة وتسمى أحيانًا المبقرة أو المسرد، وهي أداة حديدية لها رأس مدبب كرأس المبير ولها مقبض خشبي، تستخدم لبقر الجلود[٣] ومن أدوات الدباغ المخيط الذي يخاط به الجلد، والمطرقة والمسامير والخيوط الذهبية والفضية والحريرية التي كثر استعمالها في ليبيا خلال العصر العثماني.

ولاشك أن الدباغة من المهن التي عرفت في ليبيا منذ القدم لاسيما في مدن أقليمى طرابلس وبرقة التي ذكر الأدريسي أن بها ديار للدباغ تجلب إليها جلود البقر والنمور من واحة أوجلة الواقعة جنوب شرق البلاد[٤] إلا أنها كانت بدرجة أقل من الأرياف والبوادي، حيث تربى الأغنام والماعز والأبل، وقد أشار الرحالة الألماني هورنمان الذي زار البلاد في نهاية القرن (١٢هـ/ ١٨م)، وذكر أنَّ عض سكان مدينة مرزق الواقعة في الجنوب الغربي من البلاد الليبية يزاولون مهنة الدباغة. ومما يؤكد أهمية نشاط هذه المهنة في طرابلس ورود محلات الدباغة في يوميات حسن الفقيه[٥] ومنها يومية كتبت في يوم الاثنين ١٢شعبان (١٢٢٨هـ/ ١٨١٣م) وهي تخص صيانة وترميم بعض العقارات في ولاية طرابلس ومنها محلات المدابغ وذلك بأشراف شيخ البلد.

ويبدو أن طرابلس أصبحت مع نهاية العصر العثماني على أقل تقدير من المراكز المهمة في دباغة الجلود سواء تلك التي تعد للصناعة أو لأغراض التصدير إذ بلغ عدد الجلود المدبوغة في العام الواحد حوالي ٧٢٠٠٠ قطعة أغلبها يستهلك محليًا والباقي يصدر عن طريق البحر إلى الخارج، ليس هذا فحسب بل أن ولاية طرابلس كانت تستورد جلود الماعز المدبوغة والمصبوغة باللون الأحمر والأصفر من بعض البلاد الأفريقية المجاورة فيما يعرف ببلاد السودان، ليعاد تصديرها إلى أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية بعد أن تستهلك الأسواق المحلية حاجتها منها[٦].

ولقد شهدت المصنوعات الجلدية خلال العصر العثماني الثاني تطورًا كبيرًا في ولاية طربلس، حتى أصبحت منتجاتها تضاهي أجود المصنوعات الأوروبية او الهندية بأناقتها وجودة صناعتها، فقد أشار كاكيا[٧] إلى أن جزءًا

---

(١) ابن سيدة، المخصص، ج ١٢، ص ١٠٩. ألفرد لوكاس، المواد والصناعات عند قدماء المصريين، ص ٢٤٣.

(٢) سعد محمد كامل، فن النسيجات الشعبية، ص ٣٩ ومابعدها.

(٣) ابن سيدة، المخصص، ج ١٢، ص ١٠٩

(٤) الشريف الأدريسي، نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق، مكتبة الثقافة الدينية، ٢٠٠٢، ص .

(٥) حسن الفقيه حسن، اليوميات الليبية، ج ١، ص ٢١٧.

(٦) محمد ناجي ومحمد نوري، طرابلس الغرب، ص ص ٤٩، ٦٥.

(٧) جوزيف انتوني كاكيا، ليبيا خلال الإحتلال العثماني الثاني، ص ١٢٣، ١٢٤. أحمد صدقي الدجاني، ليبيا قبيل الإحتلال الإيطالي، المطبعة الفنية الحديثة، طرابلس ١٩٧١م، ص ص ١٢٣، ١٤٥.

من الجلود يستورد من الخارج يستعمل في صناعة المصنوعات الراقية الغالية الثمن التي تخصص في صناعتها حرفيون مهرة استطاعوا توشية الجلود بأسلاك الذهب وخيوط الفضة، وتطريزها بخيوط الحرير الملونة، في حين أن الجلود المحلية كانت تستخدم في صناعة الحقائب والأحذية المتواضعة الثمن والتي كانت تصدر إلى الدول المجاورة مثل مصر وتونس والسودان فضلاً عن دول أفريقيا الوسطى التي تربطها علاقات تجارية مع ليبيا منذ زمن بعيد.

ومع مطلع القرن العشرين قدم لنا بانزة[1] وصفًا دقيقًا لورش الدباغين من طرابلس شارحًا طرائق عملهم وأدواتهم التي أهمها المطرقة والسندان الذي يبلغ إرتفاعه من ١٠- ١٥سم، وذكر أن هؤلاء الحرفيون هم في الوقت نفسه سراجون واسكافيون يصنعون الأحذية المنزلية والبلغ والتى يطوى كعبها عادة على النعل ليسهل خلعة وانتعاله.

الخاتمة

تتبعت هذه الدراسة تاريخ الصباغة والدباغة عبر العصور فى محاولة لتكون أساس تبنى عليه الدراسات المستقبلية، وقد توصل البحث إلى النتائج الآتية:

١ – توصلت الدراسة إلى أن صناعة الصباغة والباغة فى ليبيا من الصناعات الموغلى فى القدم إذ أثبتت القرائن الآثارية أن الإنسان الليبى اتقن استخدام ومزج الألوان منذ العصور الحجرية إذا لم يكن أبعد من ذلك بدليل رسومات حياته اليومية التى سجلها على جدران المساكن داخل الكهوف.

٢ – بينت الدراسة قيام هذه الحرف فى العديد من المدن الليبية خلال العصور الإسلامية ولاسيما العصر العثمانى.

٣ – أثبتت الدراسة أن ليبيا غنية بالكثير من مصادر الأصباغ التى استخدمها الصناع وصدر الفائض منها إلى دول الجوار، كما استوردت حاجتها من بعض الأصباغ الغير متوافرة محلياً.

٤ – بينت الدراسة مرحل ازدهار هذه الصناعة واضمحلالها.

مريم الزناتي إبراهيم – كلية الآداب – جامعة بنغازي – ليبيا

(١) إفالد بانزة، طرابلس مطلع القرن العشرين، ص ص ٩٢، ٩٣، ١٤٤.

ثبت المصادر والمراجع

أولاً : القرآن الكريم

ثانيًا المصادر العربية

ابن سيدة، أبو الحسن علي بن إسماعيل، المخصص، ج ٢، ج ٤، دار الأفاق الجديدة، بيروت، (د. ت).

أبو عبد الرحمن بن خليل أحمد الفراهيدي، كتاب العين، ج ٧، تحقيق: مهدي المخزومي، وإبراهيم السامرائي، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٨٦م.

حسن، الوزان، وصف أفريقية، ترجمة: محمد حجي، ومحمد الأخضر، ط ٢، دار المغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٣.

مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط ،مطبعة مصر، القاهرة، ١٣٨١هـ/ ١٩٦١م، ج ٢.

محمد بن عثمان، الحشائشى جلاء الكرب عن طرابلس الغرب، تحقيق: على المصراتى، دار لبنان، بيروت، (١٩٦٨).

ثالثًا: المراجع العربية:

أحمد صدقي الدجاني، ليبيا قبيل الإحتلال الإيطالي، المطبعة الفنية الحديثة، طرابلس ١٩٧١م.

بشير قاسم يوشع، غدامس وثائق تجارية تاريخية اجتماعية، مركز جهاد الليبين للدراسات التاريخية، دار لبنان للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٢م.

حسن الفقيه حسن، اليوميات الليبية، (٩٥٨-١٢٤٨هـ/ ١٥٥١-١٨٣٢م) تحقيق محمد الأسطى وعمار جحيدر، منشورات مركز دراسات جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي، ج١، طرابلس، ١٩٨٤م.

ربيع حامد خليفة، الفنون الزخرفية اليمنية في العصر الإسلامي، الدار اللبنانية، بيروت، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م، ص ١٦٩.

رجب عبد الحميد الأثرم، محاضرات في تاريخ ليبيا القديم، دار الأماني للنشر، دمشق، ١٩٨٨م.

سعاد ماهر محمد، الفنون الإسلامية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٦م.

الطاهر الزاوي، معجم البلدان الليبية، مكتبة النور، طرابلس، ١٣٨٨هـ /١٩٦٨م.

عبد العزيز الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع عشر الهجري، مطبعة العراق، بغداد، ١٩٨٤م.

فريال داود المختار، المنسوجات العراقية الإسلامية من الفتح العربي إلى سقوط الخلافة العباسية، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٧٧م.

محمد عبد العزيز مرزوق، الفنون الزخرفية الإسلامية في العصر العثماني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٤م.

محمد ناجي ومحمد نوري، طرابلس الغرب، ترجمة أكمل الدين محمد أحسان، مكتبة الفكر، طرابلس، ١٩٧٣م.

فاروق ناصر الراوي، الكيمياء، حضارة العراق، ج ٢، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٨٥م.

وليد الجادر، الأزياء والأثاث، حضارة العراق، ج ٤، دارالحرية للطباعة، بغداد، ١٩٨٥م

يحيى وهيب الجبوري، الخط والكتابة في الحضارة العربية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٤م.

رابعًا: المراجع المعربة:

ألفرد، لوكاس، المواد والصناعات عند قدماء المصريين، مكتبة مدبولي، القاهرة، د. ت.

إفالد بانزة، طرابلس مطلع القرن العشرين،ترجمة عماد الدين غانم، منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، مطابع المؤسسة العلمية للوسائل التعليمية، جلب، ١٩٩٨م.

جرهارد رولفس، رحلة إلى الكفرة، ترجمة عماد الدين غانم، منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، طرابلس، ٢٠٠٢م.

جوزيف انتوني كاكيا، ليبيا خلال الاحتلال العثماني الثاني، ١٨٣٥-١٩١١م، دار الفرجاني،طرابلس، ١٩٧٥م.

جون فرانسيس ليون، من طرابلس إلى فزان، ترجمة مصطفى جودة، الدار العربية للكتاب، ليبيا- تونس، (١٩٧٦م).

فرنشيسكو كورو، ليبيا أثناء العهد العثماني الثاني، تعريب خليفة التليسي، دار الفرجاني، طرابلس، ١٩٧١م.

هنري لوت، الرسوم الصخرية في الصحراء الكبرى، الصحراء الكبرى، منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، طرابلس، (١٩٧٩م)

هيرودتس، الكتاب الرابع، ترجمة محمد المبروك الدويب، منشورات جامعة قاريونس، بنغازي، (١٩٨١م).

خامساً : الدوريات:

سعيد على حامد، من صناعاتنا التقليدية النسيج، مجلة تراث الشعب، م٣، العدد٣، ٤، السنةالثالثة، (١٤٠٢ و.ر/١٩٩٣م.

فرج حبة، الكيمياء وتكنولجيتها في العراق القديم، مجلة سومر، م٢٥، ج١، ج٢، ١٩٦٩م.

سادساً: الرسائل العلمية:

مريم الزناتي إبراهيم، ملابس المرأة الليبية خلال العصر العثمانى، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة قاريونس، بنغازي، ٢٠٠٥م.